اعترافات فتى العصر

لألفريد دى موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الجزء الخامس

الفصل الأول

قدمنا إلى باريس مصممين على الرحيل منها إلى سفر بعيد . فأقمنا فى منزل خاص لنعدّ ما نحتاج إليه ، وكأن تصميمنا على مغادرة فرنسا بدّل كل شئ في نظرنا فعاد إلينا الفرح والأمل والثقة مرة واحدة ، وتبدد الحزن من حولنا ، وقضت فكرة الانتقال القريب على كل مشاكسة وجدال

واستغرقنا فى أحلام سعادتنا وأصبحت لا أنقطع عن ترديد أغلظ الأقسام بأننى لن أتحول عن حبي ما عشت موجهاً كل عنايتى إلى إنساء خليلتى كل ما حملتها من شقاء وأوصاب . وما اكتفت بريجيت بإلقائى عفوها ، بل أظهرت أنها لا تتردد فى تضحية كل ما عزّ للحاق بي ؛ وهكذا رأيتنى مدفوعاً بدافع الإنصاف إلى مبادلتها إخلاصها بمثله ، فتغلب حبي لبريجيت وإعجابي بها على ما بقلبي من جامح النزعات

وانحنت يوماً على (الخريطة) مفتشة عن مكان نتوارى فيه ، وما كان وقع اختيارنا على مكان موافق بعد ، وكنا نطيل التردد متلمسين في الحيرة لذة جديدة ونحن مكبان على الرسوم يصدم جنبي جنبها ويطوّق ذراعى خصرها ، فتسألنى وأسألها عن مكان عزلتنا ، وعما سنفعل فى حياتنا الجديدة

بأى بيان أوضح ما كان يخالجنى من ندم على ما فات عند ما كنت أرفع رأسى متأملاً في هذا الوجه الشاحب الحامل آثار الآلام الماضية ، وقد أنارته ابتسامة الأمل . وكنت أنصت إلى كلماتها العذبة تصور ماسنكون عليه فأتمنى أن أريق دمى فداء لها

أى أحلام التى ! لعلك أصدق سعادة تتمتع بها فى هذه الحياة

ومضت سبعة أيام ونحن نفتش عن مأوى لنا ونتجول فى المدينة لابتياع ما نحتاجه لتزيينه ؛ وفى اليوم الثامن طرق بابنا شاب لا أعرفه يحمل رسائل لبريجيت ، وبعد أن قابلها وانصرف رأيتها حزينة واهية القوى ، وما عرفت عن هذه المقابلة سوى أن الرسائل واردة من المدينة التى كنت تبعت بريجيت إليها لأملى لها غرامى حيث يقطن أقرباؤها

وأعددنا فى زمن وجيز كل ما احتجنا إليه ، فأصبحت مأخوذاً بفكرة الرحيل ، وقد تولاني منها تمثل منع كل راحة عنى ، فكنت أنهض من فراشى مبكراً وأدخل إلى غرفة بريجيت ماشياً على رؤوس أصابعى متحاشياً إيقاظها لأجثو أمام سريرها ، حتى إذا أفاقت رأتنى شاخصاً إليها ، وقد بللت أجفانى الدموع ؛ وما كنت أدرى أية وسيلة أتخذ لأثبت لها إخلاصى فى ندامتى ؛ فتجاوزت حدود الأعمال الجنونية التى لامستها فى غرامى الأول ، وأصبحت أستوحى غرامى الجامح كل عمل يتجه إلى الشطط والإفراط ؛ فتحول عشقى إلى نوع من العبادة ،

فكنت كلما دنوت منها أنسى أنني مالكها منذ ستة أشهر ، ويخيل إلى أنني أراها لأول مرة فأكاد لا أجسر على لمس أدرانها وهي مَنْ حملتها من فظاظتي ما لا يحتمل . فإذا تكلمت ارتعشت كأنني أسمع صوتها لأول مرة ، ويدفعني الهوس إلى الارتماء على أقدامها منتحباً ، أو إلى الاستغراق في الضحك دون ما سبب . وكنت إذا ما تذكرت معاملتي الماضية أشعر باشمئزاز وأود لو أن على وجه الأرض هيكلاً للحب أذهب إليه فأعتمد في مائه المقدس ، وأرتدي مسوحه فلا أخلعها إلى الأبد

ومثلت لخيالي اللوحة التي رسم فيها تيتان مشهد الحواري توما يلمس بأصبعه جرح المسيح فرأيتني أشبه هذا الحواري إذا صح وجه الشبه بين حب الانسان وإيمانه بربه : إن في ملامح توما وهو يسبر الجرح ما يصعب تحديده من عاطفة تتراوح بين الشك والايمان فتلوح لك كلمة التجديف الحائرة كأنها تذوب على شفتي الحواري ، وقد ارتفعت منهما كلمة الصلاة ، فلا تعلم أجاحد هو أم رسول ؛ ولا تدري إذا كان بلغ في ندمه ما بلغه من كفره . ولعل هذا الحواري نفسه لم يدرك كما لم يدرك الرسام ولم يدرك الناظر إلى الرسم هذا السر الغامض الذي ترف عليه من الخلاص ابتسامة كأنها الشعاع الندي تحت شعاع الرحمة والحنان

وما كنت أقف أمام بريجيت إلا مثل وقفة الحواري توما ، وقد حكمني الصمت وتولتني الدهشة فأرتجف فرقاً خشية أن يكون ما تبدل من حالي قد دفع بسريرتها إلى الارتياب بي ، ولكن ما مرت علينا خمسة عشر يوماً حتى نفذت بصيرة بريجيت إلى ما يدور في خلدي فأيقنت أنها استنبتت باخلاصها إخلاصي ، وأن صفاء نيتي قد نشأ من مجالستها وصبرها فما وسعها إنكار المعلول والعلة لا ريب فيها

وكانت الحوائج ومجموعات الصور والأقلام والكتب والرزم تملأ الغرفة وقد نشرت عليها الخريطة التي استولت على كل جوارحنا . وكنت أذهب وأجيء في هذه الغرفة لأقف أمام بريجيت وأنطرح على أقدامها فتصفني بالكسل وتقول إنها لا تجد بداً من القيام لوحدها بالأعمال جميعها ما دمت أنا لا أنفع لشيء

وبينما كانت ترتب الحقائب وتقفلها كان الحديث لا ينقطع بيننا عما ننويه لسفرنا ، فكنا نقول إن سيليسيا على بعدها معتدلة الجو في فصل الشتاء . إن جنوا جد رائعة بما وراءها من جبال وما فيها من حدائق انبسط الاخضرار على أعراشها ولكنها مكتظة بالناس ، يملأها الصخب ، ويقلقها الضجيج ؛ وإذا مرَّ في أسواقها ثلاثة رجال فلا بد أن يكون فيهم راهب وجندي . إن فلورنسا حزينة ولا تزال معرضاً لحياة القرون الوسطى فكيف نحتمل مشاهدة نوافذها المحترقة وجدرانها القذرة ؟

أما روما فما شأننا بها وما نحن من السائحين الذين يتوقون إلى الغرائب أو يطلبون العلم ؟

أفما يجدر بنا أن نذهب إلى ضفاف الرين ؟ ولكننا لن نصل إليها إلا بعد انقضاء الموسم ، ويصعب على الانسان أن يقيم في الأماكن المهجورة

أما أسبانيا فحركتها مستمرة وعلى مرتادها أن يعيش فيها كما يكون في ساحة حرب فيتوقع مصادفة كل شيء ما عدا الراحة

لنذهب إذن إلى سويسرا مقصد العدد الغفير وإن لم ترق لبعض الناس ، فهنالك يتجلى أروع

ماخلق الله من الألوان : هنالك زرقة السماء وخضرة السهول وبياض القمم العالية

وصاحت بريجيت : هيا بنا : لنطر كنردين فى الأجواء ، وليقم فى ذهننا أننا لم نلتق إلا منذ أمس الدابر فى أحد المراقص فأعجبت بك وأعجبت بى . ولسوف نقص على بعد أن نبتعد أميالا أنك فى القرى الصغيرة عشقت امرأة تدعى مدام بيارسون فلا أصدق شيئاً مما ستسرده عنها إذ لا أريد أن تسرّ إلىّ بما وقع بينك وبين امرأة هجرتها لتتبعني . ولسوف أقول لك أنا أيضاً إنني منذ أمد غير بعيد أحببت رجلا ذا أخلاق سيئة حملت الشقاء من صحبته فتسمعني كلمات الاشفاق وتلزمنى السكوت ، وهكذا نطوى إلى الأبد تلك الصفحة القديمة

وعند ما كانت بريجيت تتكلم بمثل هذا كنت أشعر بجشع الحريص وارتياعه ، فأضمها إلى صدرى بساعدين يرتجفان ، وأنا أهتف قائلاً إننى لا أعلم ما يوجب ارتعاشى أفرحى أم خوفى ؟ سأحملك إلى بعيد يا بريجيت ، لأنك كنزى الوحيد فتكونين لى تحت هذه الآفاق الوسيعة . هيا إلى الأمام ولتمت ورائى أيام شبابى وتذكاراتى فتضمحل معها آلامنا وأوصابنا

أى خليلتى لقد حوّلت بصيرك الولد رجلاً فإذا ما تخليت عنى الآن يمتنع علىّ أن أحب بعد من يدرى ؟ لعل امرأة غيرك كانت ستتولى معالجتى لو لم تعثرى علىّ . أما الآن فأنت وحدك فى العالم المرأة التى بيدها إنقاذي وهلاكى لأننى أحمل على قلبى وسمَ جميع ما حملتك إياه من عذاب . لقد كنت عاقًا فعميت بصيرتى وقسوت عليك ، وإننى أشكر الله لأنك لا تزالين تحبيننى ، فإذا ما عدت يوماً إلى القرية التى رأيتك تحت أشجارها فتطلعي ملياً إلى ذلك المسكن المقفر ، إنك لواجدة فيه طيفاً يتوه في أرجائه ، ذلك هو الرجل الذى دخل إليك من باب هـذا المسكن فبقى فيه ، لأن الرجل الذى خرج معك منه إنما هو رجل آخر .

وكان جبين بريجيت يشع بنور الحب ، وتلتفت إلى السماء قائلة : أصحيح أننى لك وأننا سنبتعد عن هذا العالم الذى أهرمك فى شرخ شبابك . إنك ستعرف ما هو الحب فتتجلى أمامى حقيقة نفسك ؛ وإذا وهنت محبتك لى يوماً أيان يستقر بي الترحال فإنك لن تتملص من تبكيت ضميرك لأننى أكون قمت بالمهمة التى قدرت على ؛ فإذا ما تخليت عنى أجد في السماء إلهاً أوجه إليه شكرى على ما أولانى من نعمته .

إن هذه الكلمات لم تزل تصدو فى جوانب تذكارى فتملأنى حزناً وروعة .

وأخيراً قررنا أن نسافر إلى « جنيف » فنختار لنا مسكناً هادئاً على منحدر جبال « الألب » فبدأت بريجيت تذكر البحيرة الجميلة فأحسبنى أنشق النسمات التى تعقد زرداً على سطحها حاملة عطور أزهار الوادى ، فكنا نشاهد بعين الخيال « لوران » و« ڤيڤى » و « أويران » ووراءها قمم الجبل الوردى الذي يفصلها عن سهول « لومباردى » الواسعة . فكأننا كنا نسمع فى هـذه الأماكن هتاف السكينة وهمسات أرواح العزلة تدعونا إليها لإغراق حياتنا فيها

وعند ما كان يحين المساء وأريت على أنامل

بريجيت بأناملي كنا نشعر كلانا بشيء من التسامي يقصر البيان عنه ، وما هو إلا عاطفة كل قلب يستعد للرحيل ، فتتنازعه روعة الابتعاد وآمال ما يتوقع مشاهدته في سفره

إن في فكر الانسان أجنحة خافقة وأوتاراً ناطقة تمثل الألوهية فيه ، فاذا ما استعد للرحيل ينتصب فيه عالم جديد كأنه خلق فيه خلقاً

وما عتم حتى ظهرت على بريجيت دلائل الشحوب فأصبحت صامتة تحنى دائماً رأسها ، وإذا ما سألتها عما بها تجيب في صوت خافت أنها لا تشعر بشيء . ونبهتها يوماً إلى قرب ميعاد السفر فنهضت متخاذلة لتتمم معدات الرحيل ؛ وأردت أن أشدد عزمها بتأكيدي لها أنها ستلقى السعادة وأنني سأكرس لها حياتي فلجأت إلى ذرف الدموع ، وقبلتها فعلا وجهها الشحوب وأعرضت بعينيها عني تاركة شفتيها لشفتي ، وقلت لها إن بوسعها العدول عن الرحيل فقطبت حاجبيها

ودعوتها إلى إعلان ما تضمر مكرراً لها أقساني بأنني سأضحي حياتي لتأمين سعادتها فارتمت على عنقي غير أنها لم تلبث حتى دفعتني عنها وهي لاتعي

ودخلت يوماً إلى غرفتها حاملا ورقة السفر بالعربة التي تتجه إلى « بزانسون » وإذ اقتربت منها واضعاً هذه الورقة على ركبتيها رفعت ساعديها وصرخت ثم سقطت مغمى عليها على قدمي

الفصل الثاني

وحاولت عبثاً معرفة ما دعا بريجيت إلى هذا الانقلاب الفجائي ، فكانت تصر على السكوت وهي عليلة . وأمضيت يوماً كاملاً في التوسل إليها ذاهباً في ظنوني كل مذهب حتى عيل صبري ، فطفرت إلى الشارع تائها ولا وجهة أقصدها ، حتى إذا وصلت إلى الأوبرا اعترضني شخص عارضاً على تذكرة دخول فأخذتها منه ودخلت المسرح وأنا لا أعي

جلست مشرد الفكر لا يسترعي نظري شيء ، فقد كانت بصيرتي المستغرقة في ذاتها تموه على بصري فتمحو كل مرأى حولي وقد انصبت على فكرة واحدة كلما زدتها إمعاناً ازدادت غموضاً وإبهاما

ما هو هذا الحائل الذي انتصب فجأة على سبيل آمالنا فتعثرت به وتبددت ؟ إذا كان هنالك كارثة من فقد ثروة أو موت صديق فما يدعو مثل هذا إلى التكتم والاصرار على السكوت . إن بريجيت لم تدخر وسعاً لتحقيق أمانينا فما يكون هذا السر الذي يذرو سعادتنا هباء ولا يسعها إعلانه ؟

أصحيح أن بريجيت توصد سريرتها دوني ؟ ما الذي يدعوها إلى كتمان أمرها إذا كان لها من حزنها أو ترددها أو غضبها ما يوجب إرجاء رحيلها أو العدول عنه ؟

وما كان قلبي وهو السادر في هواه ليخامره ريب في إخلاص بريجيت فاذا لاحت لي فكرة تستدعي لومها ردها هذا القلب متمرداً بعد أن رأى من ثباتها وولائها ما رأى . وهكذا وجدتني تائها في وهاد أظلمت آفاقها وخفيت عني مخارجها

ولاح لي على أحد المقاعد المقابلة شاب لم تغرب سيماؤه عن تذكاري ، فحدقت فيه وشرود فكري يحول دون تحديدي لشخصه وقرن هيئته باسمه .

وبعد شخوص مديد عرفت فجأة أنه الشاب الذى حمل إلى بريجيت الرسائل من مدينة « ن » حيث يقيم أنسباؤها ، فنهضت مسرعاً دون تروٍ قاصداً مخاطبته ولكننى رأيت أن لابد لى من اجتياز عدد وفير من القاعد للوصول إليه فاضطررت إلى الانتظار ريثما ينزل الستار . وخطر لى أن هذا الشاب دون سواه يمكنه أن يرسل نوراً على ظلمات شكوكي لأنه قابل مدام بيارسون مراراً عديدة منذ أيام ، وكنت أراها بعد كل مقابلة معه حزينة قلقة وكانت قابلته فى صبيحة يوم اعتلالها . وما أطلعتنى بريجيت على الرسائل التى وردت إليها فقد يكون هذا الشاب إذن عارفاً بالسبب الذى دعا إلى تأخير رحيلنا وإذا كان لايعرف هـذا السبب فهو على الأقل يعلم ما تضمنت الرسائل . وكنت أرى فى اطلاع هذا الشاب على أمورنا ما يجرئنى على استجوابه ، لذلك سرنى الالتقاء به ، وما أسـدل ستار المسرح حتى سارعت إلى اللحاق به فى الممشى ؛ ولكنه اندفع دون أن أعلم إذا كان رآنى أم لا ، وتوارى فى إحدى الشرفات فوقفت أنتظر خروجه ربع ساعة حتى إذا فتح الباب رأيته خارجاً فهرعت نحوه رافعاً يدي بالسلام ولكنه بعد أن مشى بضع خطوات متردداً أدار ظهره فجأة وانحدر على أحد السلالم واختفى .

وما كانت حركتى لتخفى على هذا الشاب فقد أدرك ولا ريب أننى قصدت مخاطبته ، فهو إذن قد أراد اجتناب هذه المخاطبة ، وما كان له أن ينسى هيئتى ، وهب أنه لم يعرفنى فليس من المألوف أن يولى الانسان الأدبار أمام من يسير نحوه . وما كان فى الممشى أحد سوانا عند ما اتجهت إليه فلا ريب إذن فى أنه تهرّب من مقابلتى

وما خطر لى قط أن هذا الشاب تعمّد إهانتى بما فعل لأنه كان يزورنا كل يوم فألقاه بالترحيب فضلاً عن أنه كان بسيطاً متواضعاً وليس فى خلقه شىء مما يبرر الظن بسوء قصـده فهو إذن أراد التخلص من محادثة رآها مرهقة له . وهكذا قادنى التفكير إلى اضطراب أشد إذ تحققت وجود علاقة لاريب فيها بين تهرّب هذا الشاب وإصرار بريجيت على السكوت

ليس فى العالم عذاب أشد على الانسان من الارتياب . ولكم تعرضت للمصائب فى حياتى لأننى ملت إلى الشكوك فاستبقت الحادثات

وعدت إلى المسكن فرأيت بريجيت مشغولة بقراءة هذه الرسائل المشئومة ؛ فقلت لها إننى علت صبراً فلن أطيق بعد الآن بقاء فى هذا المأزق الذى يبلبل أفكارى ، وأعلنت لها إصرارى على معرفة ما أدى بها إلى هذا التبدل قائلاً : إنها إذا استمرت على الصمت أعتبر صمتها كرفض صريح للرحيل معى بل كأمر تصدره إلىّ بالافتراق عنها إلى الأبد

فما وسع بريجيت تجاه هذه المهاجمة إلا أن تسلمنى — ودلائل الامتعاض بادية على محياها — إحدى تلك الرسائل ، فإذا أقرباؤها يقولون فيها إن رحليها سيصمها بالعار ، إذ لا يجهل أحد ما دعاها إليه ، وأنهم يجدون من واجبهم تذكيرها بسوء مصيرها لأنها تعيش معى بخليلة ، وأن عليها وإن

كانت حرة فى تصرفها كأرملة أن تحافظ على سمعتها وشرف الاسم الذى تحمله ، فاذا هى تمادت فى غيها فلا عتب لها عليهم وعلى جميع أصدقائها إذا هم قطعوا كل علاقة بها . وقد اختتم هؤلاء الأقرباء رسالتهم بإسدائها النصح للرجوع إلى بلادها

آلمتنى لهجة هذه الرسالة فلاح لى لأول وهلة انها لاتتضمن إلا إهانات وتقريعاً . فقلت لبريجيت لاريب فى أن الشاب الذى حمل إليك هذه الرسائل قد كلّف أيضاً بترديد ماورد فيها على مسامعك فهل تنكرين أنه يقوم بهذه المهمة ؟

ورجعت إلى الصواب كاسراً من حدة غضبي أمام بوادر الحزن التى ظهرت على وجه بريجيت وهى تقول : لك أن تفعل ماتشاء إلى أن تقضى علىّ إن حظى من الحياة بين يديك وأنت سيد هـذه الحياة منذ زمان بعيد وبوسعك أن تعدّ ما يحلو لك من انتقام تجاه هذه الجهود التى يبذلها أصدقائي القدماء بدعوتهم لى إلى سواء السبيل وبمحاولتهم إرجاعى إلى حظيرة المجتمع الذى كنت أحترمه من قبل والشرف الذي تعرّيت منه . ليس لى ما أقوله لك ، ولك إذا شئت أن تملى علىّ جوابى على هذه الرسائل فأصدع بأمرك

فقلت لها : إننى لا أطلب سوى معرفة ماتقصدين ومن سيصدع بالأمر إنما هو أنا لا أنت ؛ فقولي لي أتريدين البقاء أم الرحيل لأعلم إذا كان يجب على أن أرحل وحدي

فأجابت بريجيت : لماذا توجه إلى هذا السؤال ، وهل قلت لك إننى غيرت رأيى ؟ إننى متألمة ولا طاقة لى على السفر وأنا على هذه الحال فلا أنتظر إلا الشفاء ، أو على الأقل استعادة بعض القوى لأذهب معك إلى جنيف كما تم اتفاقنا

وافترقنا بعد هذه المحادثة وفى قلبي من برودة لهجتها من الحزن ما لم أكن لأشعر بمثله لو أنها أعلنت أنها لن ترحل معى

وما كانت هذه المرة الأولى التى حاول بها الناس بمثل هذه النصائح أن يفرقوا بيننا . غير أن بريجيت ما كانت من قبل لتأبه لمثل هذه المحاولات ، لذلك صعب علىّ التصديق بأن هذه الرسائل وحدها قد أثرت فيها هذا التأثير فى حين أن ما انطوت عليه من نصائح كانت قد بذلت لها من قبل أيام لم تكن بلغنا السعادة التى توصلنا إليها أخيراً . ووقفت أحاسب نفسى لأعلم إذا كنت أتيت فى باريس أموراً توجب إدانتى . ثم تساءلت عما إذا كان السبب فى هذا الانقلاب ما يطرأ على النساء من ضعف عند ما يقررن اقتحام أمر فلا يجسرن على تنفيذه ، أم إن هنالك ما يدعوه الإباحيون آخر مقاومة للعقائد الموروثة ، ولكن بريجيت كانت قد أمضت ثمانية أيام لاتنى خلالها عن التكلم عن أحلامها وعن حياتها المقبلة بكل صراحة وبكل إخلاص حتى أنها أصرت على الرحيل بالرغم منى فلا بد إذن من وجود سر فى الأمر ، ولكن أين السبيل إلى النفوذ اليه إذا كنت لا أتلقى جواباً على ما أوجهه إلى بريجيت من سؤال إلا على شكل لا يتفق والحقيقة ؟ وما كان بوسعي أن أكذبها طالباً منها إيراد جوابها بشكل آخر

إنها تعلن لي استعدادها للرحيل ، غير أن اللهجة التي تتخذها لهذا التصريح تدعوني إلى رفض ما تعلن قبوله ، إذ ليس لي أن أرضى بمثل هذه التضحية وقد أصبح قبولها في عيني عبارة عن خضوع لأمر واقع أو استسلام لقضاء لا بد منه . وقد كنت أعتقد من قبل أن بريجيت تطاوع هواها لتتبعني فإذا هي في نظري مكرهة على القيام بما عاهدت عليه ووعدت به ، وروّعني أن أحمل بين ذراعي هذه المخلوقة الشاحبة لأختطفها من أوطانها وأذهب بها إلى أمد بعيد قد يطول مدى الحياة وما هي بين يدي إلا ضحية مستكينة .

لقد قالت لي إنها ستفعل كل ما يحلو لي ، وما يحلو لي أن أكلف التجلد والصبر ما يزيد في آلام القانتة الصابرة ، وأسهل علي أن أذهب ضارباً في مجاهل الأرض وحدي من أن أتحمل النظر أسبوعاً واحداً إلى هذا الوجه يقنع بالشحوب سره الدفين

ويلي : أيوسعني أن أذهب وحدي ناكصاً على أعقابي بعد أن قطعت بخمسة عشر يوماً أجمل مراحل السعادة ؟ أنى لي هذا الإقدام وأنا لا أفكر إلا في الوسيلة التي تمكنني من اختطاف بريجيت والرحيل بها ؟

ومرّ بي الليل الطويل ولم يغمض لي جفن ، حتى إذا لاح الفجر وجدتني مصمماً على مقابلة الشاب الذي رأيته في المسرح ، وما عرفت أكان ما يدفعني إلى ذلك حاسة غضب ، أم حاسه فضول ؟ وما عرفت أيضاً ما أريد من هذا الشاب . ولكنني وثقت من أنني سأتمكن من مقابلته فلا يتسنى له هذه المرة أن يتهرّب من ملاقاتي

وما كنت أعرف عنوان مسكنه ، فدخلت على بريجيت أطلب هذا العنوان قائلاً : إن الواجب يقضي عليّ بزيارة من زارنا مرات عديدة ، وما كنت أخبرتها شيئاً عن مصادفتي له في المسرح ، فوجدتها مستلقاة على سريرها وعلى أجفانها بلل الدموع ، ومدت يدها إليّ قائلة : ماذا تريد مني ؟

وكانت نبرات صوتها تتدفق مرارةً وحناناً

وخرجت من غرفتها بعد محادثة قصيرة مشبعة بالولاء وقد سقط عن قلبي بعض ما يثقل عليه

وعرفت من بريجيت أن الشاب الذي أقصد زيارته يدعى سميث ، وأنه ساكن على مقربة منا . ولما قرعت بابه ملكني اضطراب شديد ومشيت إليه كأنني أقتحم نوراً شديداً ؛ غير أنني ما وقفت أمامه حتى جمد دمي في عروقي لأنه كان منطرحاً كبريجيت على فراشه ووجهه شاحب كوجهها ، فمد إليّ يده قائلاً ما قالت هي : ماذا تريد مني ؟

إن في الحياة من غرائب التصادف ما يحير العقول

قعدت ولم أجب فكأنني استفقت من حلم ، وأنا أكرر في سري السؤال الذي وجهه الشاب إليّ لأنني ما كنت لأعرف ما أتيت أفعل لديه . وهب أن هذا الشاب مطلع على أمور تهمني فهل هو مستعد لإعلان ما يكتم . لقد حمل الرسائل إلى بريجيت فهو لا شك يعرف مرسليها ، ولكن هل هو يعرف عن مضمونها أكثر مما أطلعتني بريجيت عليه ؟ وصعب

علىّ أن أستنطق مضيفى وأصبحت أحاذر أن يرتاب فيما يمر بخاطري

وبدأنا الحديث بالمجاملات المألوفة فشكرته لقيامه بالمهمة التى كلفه إياها أنسباء مدام بيارسون وقلت له إننا عند ما نبارح فرنسا سنعهد إليه أيضاً ببعض المهام . ثم حكمنا الصمت كأن كلا منا لايدرى سبباً لوجوده تجاه الآخر

وأدرت لحاظي إلى ماحولى ككل حائر فرأيت فى هذه الغرفة وهي فى الدور الرابع مايدل على نزاهة ساكنها واجتهاده ، إذ لم يكن فيها سوى عدد من الكتب والآلات الموسيقية ورسوم إطاراتها من الخشب الأبيض وأوراق منضدة على خوان ومقعد قديم وبعض الكراسى ، غير أن جميع هذه الأدوات كانت مرتبة نظيفة يرتاح إليها النظر . ورأيت على رف الموقد رسم امرأة مسنة وإذ تقدمت لأمعن فيها قال لى إنها أمه

وتذكرت حينذاك أن بريجيت كانت حدثتني مراراً عن سميث فعادت إلى مخيلتى حوادث عديدة عن حياته لأنها كانت تعرفه منذ طفولته وكانت تراه أحياناً فى قرية أنسبائها ولكنها انقطعت عن زيارة هذه القرية إلا مرة واحدة منذ تعرفت إليها ، وهكذا عرفت صدفة ما عرفته عن حياة هذا الشاب الذي كان يشغل وظيفة صغيرة ليقوم بأود أمه وأخته منقطعاً عن اللذات من أجلهما ، وبالرغم من براعته فى الموسيقى لم يقتحم المجال طلبا للنجاح فى هذا الفن بل اختار حياة السكون مفضلاً خمول الذكر منتمياً بهذا إلى فئة قليل عديدها فى الحياة ترى من واجبها شكر المجتمع لعدم شعوره بها ولاغضائه عن مواهبها

وكنت سمعت عنه أموراً تكفي لتحديد شخصيته ومنها أنه كان تولّه بفتاة عاشرها سنة فرضي أهلها بتزويجه منها وكاد العقد يتم لولا أن أمه قالت له « وأختك من سيزوجها ؟ » ففهم من هذه الكلمة أنه إذا تزوج وحوّل جنى عمله إلى عائلته فان أخته تبقى بلا مهر وتحرم من الزواج ، فلم يتردد فى العدول عن زواجه مضحياً غرامه هاجراً بلدته ووجهته باريس حيث وجد الوظيفة التي يشغلها الآن . عند ما سمعت هذه الأقصوصة فى القرية تمنيت أن أتعرف إلى بطلها إذ رأيت فى هذا الاخلاص من العظمة ما يربو على أمجاد أعظم انتصار فى معارك الحياة

وعند ما تفرست فى رسم أمه خطرت لى هذه الحادثة فحولت أنظاري إليه وسألته عن سنه فأدهشنى إعلانه لى أنه من سنى ، فى حين أن سيماءه كانت تدل على أنه أصغر منى . وعند ما دقت الساعة الثامنة وقف وأراد أن يخطو إلى الأمام فرأيته يتمايل مضطرباً ، وإذ سألته عما به قال لى إن ساعة ذهابي إلى المكتب قد حانت ؛ غير أنه لا يجد فى نفسه القوة على السير إذ أنه يشعر بنار الحمى ويتألم ألماً شديداً ، فقلت له : لقد كنت فى عافية بالأمس عند ما رأيتك فى « الأوبرا » فقال : أعتذر إليك لأنني ما عرفتك . إننى أذهب إلى الأوبرا مراراً ، وأرجو أن أصادفك هنالك

وكنت كلما أمعنت الفكر فى حالة هذا الشاب وأدرت لحاظى فى غرفته أزداد تردداً فى تناول الموضوع الذى كنت أتيت لبحثه إذ لم يبق فى

خاطري ما كان خامره من أن هذا الشاب أمكنه أن يدخل على ذهن بريجيت مايلحق الضرر بي ، بل رأيت فيه من دلائل الصراحة والجد ما أوقفني موقف الاحترام أمامه، وما لبثت أن اتخذت أفكاري مجرى آخر وأنا أتفرس في وجه رفيقي وهو يتفرس أيضاً في وجهي

لقد كان كل منا في الواحدة والعشرين من سني حياته ، ولكن الفرق كان كبيراً بيني وبينه فهو الشاب المتعود الحياة المنتظمة المتحرك ضمن دائرة محدودة ، الذي لا يعرف من الدنيا إلا طريقه بين غرفته المنفردة ومكتبه في إحدى الوزارات مرسلاً إلى والدته نتاج الجهود التي لا تعرف قيمتها إلا اليد العاملة ، فلا يشكو من ألم إلا لأن هذا الألم يحرمه يوم عمل ، ولا ينصبّ فكره إلا إلى تأمين الراحة لسواه منذ تحركت للعمل يداه . أما أنا فما الذي فعلته بهذا الزمن الثمين الذي مر بي سراعاً ، هذا الزمن الذي يمتص عرق المجاهدين في الحياة ؟ من كان مثلي يعد رجلا ؟ ومن عرف الحياة أنا أم هذا الشاب ؟

إن ما أوردته هنا صفحة مما مر بيننا في لحظة وأنا أحدق فيه وهو يحدق بي

وحدثني بعد ذلك عن سفرنا وعن البلاد التي كنا ننوي زيارتها ؛ ثم سألني عن ميعاد هذا السفر فقلت له : إن مدام بيارسون مريضة طريحة الفراش منذ ثلاثة أيام فردّد قولي : « ثلاثة أيام » بحركة استغراب لم يقو على ردها

وسألته عن سبب استغرابه فوقف وألقى ساعديه على كتفيّ وعيناه جاحظتان وهو يرتعش ، فقبضت على يديه مستفسراً عن ألمه ، فكفف دمعه براحته وانسحب يتعب نحو سريره

وحدقت فيه مندهشاً إذ رأيت الحمى تهزه هزاً فترددت في تركه على هذه الحالة ، وإذ تقدمت إليه ردني عنه بعنف ، وما عتم أن عاد إليه صوابه فقال لي: أعتذر إليك . وما كانت حالتي لتسمح لي باستقبالك فأرجو أن ترفق بي وتتركني وشأني ؛ ولن يفوتني عند ما أستعيد قواي أن أذهب اليك لأسديك شكري

(يتبع) فيكس فارس

(١) خالتي وقصص أخرى
(٢) وكيل البريد وقصص أخرى
مجموعتان من أقاصيص رابندرانات طاغور
ترجمة عبد اللطيف النشار
(٣) جنة فرعون وقصائد أخرى
(٤) نار موسى وقصائد أخرى
ديوانان من شعر عبد اللطيف النشار
(٥) الاسكندر
رواية تاريخية عن حياة الفاتح الكبير
ترجمة عبد اللطيف النشار
ثمن هذه الكتب الخمسة عشرة قروش بما في ذلك أجرة البريد وتطلب بالبريد من صاحبها بعنوانه :
١٨ شارع الإبعادية بمحرم بك بالإسكندرية